

تعلقو نفُد

عبد الفاسي

الأستاذ بجامعة القرويين وبها ملة محمد الخامس

ان هذا البحث طريف وقيم تناول فيه الدكتور محمد عبد قضايا اللحن ، والتصحيف والتوليد والتعريف في ضوء علم اللغة الحديث .

تحدث أولاً عن معنى «اللحن» في الكلام العربي والتطور الذي حدث في استعماله، وفي وسائل مقاومته ، فقد عرف اللحن أولاً بمعنى الفطنة والذكاء وبالتطرف في الحديث ، حينما يخلط بالكلام الاجنبى أو الكلام الذى يتعمد فيه الخطأ .

ثم اطلق اللحن على التورىحة وهو الذى عمل له ابن دريد كتابه الملاحن .

ثم استعمل اللحن في الخطأ في المعانى . وفيه لف الفاضل بن سلمه كتابه الفاخر « فيما تلحن فيه العامة » ..

كل هذه الأطلاقات استعملت في متنى اللحن، نصلها المؤلف واستند لها ولكن لم يذكر تاريخ التطور الذي تحدث عنه بالمعنى الدقيق للتاريخ . وعلى كل حال فالباحث يتناول بالذات اللحن بمعنى خروج الكلام الفصحى من مجرى المتنعة في بنية الكلام أو تركيبه أو أمرابه بفعل الاستعمال الذى يشبع أولاً بين العامة ويتسرب بعد إلى الخاصة .

ولا شك ان هذا اللحن أمر طارىء على اللغة اذا مفروض في كلام العرب هو الصحة وما حاد منه يعتبر خطأ .

ثم يتحدث المؤلف عن السمات التي يوصف من اجلها الكلام باللحن . ومنها الخطأ في الامر ارب كتصب الفاعل ورفع المفعول . وكذلك وضيع الكلمات فى غير موضعها وخطأ المعانى كقولهم خرجنا نشرأ اذا خرجوا الى البساطين مع ان التزره هو التباعد من المياه والارياف ، ومنها استعمال الطرف في الفرح نقط والخمسة في الاستحياء .

وقد اوضح المؤلف سر اعتبار هذا لحنـا ؛ وزعم انهم لم يراعوا تطور الدلالة في الكلمة ، مع ان الكلمات ليست أحجاراً جامدة .

ثم حاول تفسير الخطأ في احلال بعض العروض محل بعضها كقولهم دخل في خمار الناس ، مع ان العرب يقولون دخل في خمار الناس - بالخاء لابالغين - بالتطور الصوتي . وبعد ان مدد عشرة أمثلة تتعلق ببنية الكلمة قال : ان الحكم عليهما بالخطأ جاء فى ضوء القواعد الصرفية ، ثم اشار الى نهاية العلماء بهذا النوع من الخطأ .

ثم ذكر امثلة مشهورة ، لمناذج الخطأ في التركيب لامرأة كقولهم شكرت لك ونصحتك لك ، والصواب شكرتك ونصحتك ، وبين ان الكثيرون منها يتعلق بتأليف التركيب العربي والامر الذي استقر عليه ، وهو من مباحث علم النحو . وقد أكد ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراسة (لحن العامة) ايراد لما حدث في اللغة الفصحى ، ويكون مقصورا على اوساط العلماء وان اطلقوا عليهم العامة ، بخلاف المناذج الأخرى فانها منتشرة مختلف الطبقات .

وقد اوضح صموحة الوصول الى معونة تاربخ بهذه اللحن وتطوره في مصر الجاهلي ، وإن انتقد النحاة بعض المباريات الجاهلية لما يحيط بها للقواعد النحوية والصرفية الموضوعتين من بعد .

ولكن اللحن تردد عند العرب مع ظهور الاسلام على أنه كان معروفا ، وفي مهد الامميين أصبح اللحن ظاهرة خطيرة في استعمال اللغة ، وترتب منها نشاط علمي متتنوع . جاء بامثلة منه كالرحلة للبادية وتاليف الكسالى كتابه الذي لا يزال موجودا بين يدينا (مالحن فيه العامة) .. واستمرت موجة اللحن قوية متعددة ، فالقرن الثالث اقل فساحة من القرن الثاني واكثر لحتنا . وفي القرن الرابع وصل اللحن الى مداه .

لماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

نظر العلماء الى هذه الظاهرة من جهة الخطأ ، فقاوموه بعنف ، وبدأت مقاومتهم منذ القرن الثاني ، وهنا جاء بقائمة لاسماء العلماء الذين كتبوا في تقويم اللحن ، تصل حد الثلاثين كتابا .

ثم لاحظ ان هذه المقاومة كانت في القرون الثلاثة الاولى قوية لم يضعفها بعد .

وقد امتد اللاحقون على جهود السابقين ، دون ان يحاولوا استشهادات جديدة وسماعات من العرب غالبا .

وتصدوا غالبا بالعامة الناس العاديين بدليل قولهم الخواص او الخاصة . وجهودهم كلها تصرّف الى تنمية اللغة الفصحى .

لا وجود في هذه الكتب لحديث من اللحن نكرة و موضوعها .

لم يتسائل هل نجحت هذه الجهود التي قام بها أولئك العلماء ؟

ومن فعل خاص يحل هذا الموضوع اراده الجواب عن السؤال ، ويقول ان تحديد نظرية النحاة الى اللحن امر يسير ، لأنهم نظروا اليه من زاوية الخطأ واعتبروه انحرافا ولم يأخذوا في الاعتبار قوة الاستعمال وقهره والتطور الذي يمكن ترسيبه على ذلك . مع ان لحن التحويين الفسهم في الاستعمال دلالة على خطورة الاستعمال . والخلاصة انه يؤكّد في النهاية ان ما اطلق عليه النحاة منظور اليه من زاوية الخطأ ، وتقبل ان يبين مدى تجاوهم فيما تصدوا اليه ، جاء بفصل في :

معنى التصحيح والتحريف وملائهما باختلاف المعنى والبنية والامراء ، وانتهى الى القول بأن مجال البحث في الكلمتين واحد ، وهو البحث عن الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الاملائي .

ولم تستعمل الكلمتان دائمًا في مكان واحد ، بل في معانٍ لها صلة بالخطأ ، من جهة :

- 1 - من جهة التحديد النظري لمعنى التصحيح والتحريف .
- 2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .
- 3 - علاقة مظاهر الخطأ التي ترتب على ذلك .

وقد نصل هذه الجهات الثلاث وارجع السبب في ذلك الى الخط العربي الذي لم يكن منقوطا ولا مشكولا . ثم ميزت حروفه ببنقط وحركات منفصلة وتابعة للمعروف العربي ، ويسأل كذلك من هذه

المسألة علماء اللغة الذين يعطون لأنفسهم حرية رواية الكلمة كما فهموها من السياق .
فالمسؤول اذن الرسم العربي ، والناسخ ووهم المعلماء .

وبعد ان اتي بنماذج تمثل الاسباب السابقة ، عقد فصلاً لمقاومة التصحيف والتحريف بأسلوب الرواية وتنقية الاخطاء فذكر تطور ذلك على ما يأتي :

- 1 - ضبط الكتابة العربية بال نقط والشكل .
- 2 - ضرورة المشانقة في رواية اللغة .
- 3 - تنقية الاخطاء بجمعها في مؤلفات .

وقد جاء بانتقادات للعلماء على هذه الاصياب الثلاثة وعدم كفايتها لوفقاً لرواية اللغة من التصحيف والتحريف .

ولاحظ ان هذا الجانب الذي هو تنقية اللغة بجمع ما صحف وحرف في مؤلفات جانب دراسي بدأ في القرن الرابع المجري . كتب فيه المؤلفون الذين لم يكتفوا بنماذج التصحيف بل اضافوا الى ذلك تناول قضية التصحيف والتحريف من حيث نشأتها وعواملها .

ثم تساؤل : اكان هذا المجهود حلاً للقضية ؟

وقبل الجواب عن ذلك فقد فصل :

معنى التوليد في اللفاظ ومصادره اللغوية .

- 1 - ثم جاء بعرض تاريخي للمولد من حيث استعمال النقط ودراسة العلماء لظاهره .
- 2 - وبالتحديد النظري لمعنى التوليد كما رواه الاقدمون .
- 3 - وتحدث عن مصادر التوليد في اللفاظ ودراسة الماء الماء لنماذجه .

وبعد ان فصل هذه الموضوعات تساؤل ايضاً من :

مدى توفيق العلماء في مباحث التوليد ؟

وقبل الجواب عنه ايضاً انتقل الى بحث عن :

حركة التعريب وتطورها استعملاً ودراسة .

وطبعاً فإنه يعني بالتمرير معناه الاصيل الذي هو ادخال كلمة اجمالية في الكلام العربي وبنائها ، لا بالمعنى الحديث الذي تستعمله حينما نطالب بتعرير التعليم والإدارة مثلاً .

وقد بين في هذه الفقرة :

- 1 - الصورة العلمية لحركة التعريب في الكلام العربي في مصر الاستشهاد
- 2 - الصورة العلمية لدراسة العرب في الكلام العربي بعد مصر الاستشهاد .

وقد اجاد في بحث الموضوعين وما تفرع عنهما كوجود الدخيل في القرآن ، وجاء بقالمة المؤلفات المهمة في موضوع التعريب .

ولاحظ ان التأليف في هذه الظاهرة تأخر نسبياً .

وضمنت فكرة التمهيد للذكر الكلمات العربية بمقيدة علمية تناول الانكار الخامسة بهذه الظاهرة .

- 3 - كلمة الدخيل جعلت منها بعض الكتب في موضوع التعريب .

٤ - من المؤلفات كتب في التعريب وضمنت اخيرا الامر الذي يدل على انه لا يريد تناول التعريب في القديم فقط .

- اما الجانب اللغوي فقد مرض فيه نظر الاقدمين للمغرب وجهودهم في اخضاعه لمسك الصيغ العربية .

وقد فصل القول في هذا الجانب وانى بتدقيقات مهمة .

ثم تسأله ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاصدقاء ازاء النقل من اللغات الاجنبية ؟
يتلخص ذلك في اثنين :

١ - قصر المرب على العرب وحدهم الذين هاشوا في فترة زمنية خاصة .

٢ - فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المغرب من لغات متعددة
ولتقدير ذلك احال المؤلف على القسم الاخير الذي يجب فيه من الاستئلة المتقدمة .

ونفي هذا القسم تناول رأي علم اللغة الحديث من :

١ - اللحن بين تحكم القواعد وتطور الاستعمال

٢ - التصحيف والتحريف من مظاهر الرسم العربي .

٣ - الالفاظ المولدة في ضوء تطور اللغة .

٤ - التعريب بين قيود النحاة وحاجة الاستعمال .

وقد فصل اراء العلماء اللغويين المعاصرین في هذه النقطة وبين ميزة التسامح التي ظهروا بها ازاء المسألة الاولى ، وادلى باراء السنتين عرب وآباء ودما الى :

١ - تنحية الفكرة القديمة عن المجموعة المدونة فيما للحن فيه العوام واعتبارها تطورا يهدينا الى دراستها في مراحل استعمالها

٢ - النظر في هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة في مصرها ليمكن مدى انتشارها في الاستعمال فيقبل منها ما تحقق له ذلك . وتناول بعد ذلك امر التصحيف والتحريف وابدى اعجابه بجهود العلماء فيها وقال : ان العلماء بعد ان عرفوا الصعف الموجود في الرسم العربي لم يحاولوا تغييره ، وقال ان الرسم العربي شأن فيه في اللغات الأخرى قد يشتمل على ميوب ، وهذه الميوب ينبغي احتمالها والرضا عنها ارتکابا لاختفاض الرسرين ، واستدل على ذلك ببعض العالم اللستي فندرس .

اما من المولد فقد اعتبر ان الالفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

وان موقف النحاة من هذه الالفاظ قد تحكمت فيه اعتبارات اعتنوا بها ثم استسلموا لها ، وينتقد عليهم خروجهم من واجب الاستقرار الى الحكم بالاباحة او المنع على الالفاظ واعتبر ان الحق المطلبي بعض الناس في ظروف معينة ينبغي ان يعمم على كل جماعة وكل مصر فيقبل ما ولدوه من كلمات دعت اليها حاجة اللغة ومدت اليها سليتها .

ثم انتهي باستخلاص نظرية المحدين للعوامل الطارئة على اللغة .

١ - اعتبار التطور في اللغة من اسس النظرية الحديثة للمستوى اللغوي ، وتفسير هذا التطور حسب رأي - فيرس - التغيير المستمر بين عناصر اللغة .

٢ - لا تتطابق الكتابة لابة لغة مع نطق هذه اللغة فنحن ، كما يقول فندرس ، لا نكتب كما نتكلم بل نكتب كما يكتب فيرنا .

3 - ان تغير الظروف الاجتماعية ينعكس تأثيره على اللفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدوث الانسor واستعماله .

4 - نقل اللفاظ من اللغات الأجنبية بخضوع الحاجات الاجتماعية التجدد للناطقين أنفسهم ، وهذا أمر هادي لا خطر فيه .

اعتبر أن هذا الكتاب يكون بحثاً فيما خاص بالمناهج البحث اللغوي الحديثة متسللاً في اكتواره و موضوعاته وفي الاستنتاجات المترتبة عليها ، وأنه استقر بالختصار مباحث الأقدمين عن العوامل الطارئة على اللغة بكيفية لم يسبق جمعها في كتاب حديث ، ثم أعاد تقييمها على ضوء آراء علماء اللسنيات ، وبما يخص العرب التي شغلت أوقات المجتمع العربيّة أزيد من نصف قرن ، ولم يتقدم المؤلف باقتراحات تلقائية في تجديد اللغة خارجة مما ورد على السنة الباحثين المجمعين في الشرق العربي . ويظهر أن المؤلف لم يطلع على بعض البحوث التي قام بها المغاربة المختصون لاسيما في إصلاح الرسم العربي الذي وضعه الاستاذ الأخضر والذي يسعدني أن أقول مرتاحياً أنه يصلح من حيث الرسم العربي الشيء الكبير ، كما أنه فيما يظهر لم يطلع على جهود مكتب التعرير المغربي ومحاولته لاحصاء كلمات الحضارة واستقرارها والاكتفاء بما هو موجود منها في كتب اللغة أو في المجتمعات العربية من اتخاذ الدخيل الذي ينزع إليه عند عدم وجود الأصيل .

والكتاب بهذه الصفة جيد وجدير لقبوله من اللجنة المحترمة واجازته ، وبالمقارنة مع المباحث الأخرى وآراء المقربين فيها يقع التفاضل ويتسم الترجيع ، وإن كنت أوصي بكل اخلاص بمجازاة هذا المؤلف على جهده المشرف وطبع رسالته .

